Université d'Oran 2 Mohamed Ben Ahmed
Faculté des Sciences économiques, Commerciales et Sciences de Gestion
2020 – 2021

- **Niveau : L 1** **Semestre : S1**
- **Domaine : SEGC**
- **Matière : Introduction à la sociologie 1**
- **Enseignant : BENCHAREF HOUCINE**
- **Séquence : C13 / 15-13**
- **Code de la ressource : L1_S1_SEGC_D112_C13/15**

مقياس: مدخل الى علم الاجتماع

السنة الأولى علوم اقتصادية

السداسي الأول

جامعة وهران 2 محمد بن أحمد

منسقة المقياس الأستاذة: د. براس دليلة

(2021 / 2020)

الأستاذ: توباش شكيب محاضر للمجموعات: 1+2+3+4

الأستاذ: بن شارف حسين محاضر للمجموعات: 5+6+7+8+9+10

المحاضرة الثانية عشرة: المفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع

المراجع

- الغزوي، فهمي وآخرون، 2006، **المدخل إلى علم الاجتماع**، دار الشروق للنشر للتوزيع،عمان: الأردن.(مرجع رئيسي)
- بدوي، السيد مجمد، 1981، مبادئ علم الاجتماع، ط2، دار المعارف، الإسكندرية.
- بركات ،حليم، 2000، **المجتمع العربي في القرن العشرين** ، ط، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية.
- جدنز، انتوني، 2005، **علم الاجتماع (مع مدخلات عربية)**، ط4، ترجمة فايز الصياغ، مركز دراسات الوحدة العربية.
- خمش، مجد الدين، 1998، **علم الاجتماع**، دار مجدلاوي، عمان: الأردن.
- عثمان، إبراهيم، 1999، **مقدمة في علم الاجتماع**، دار الشروق للنشر للتوزيع، عمان: الأردن.
- الدقس، محمد، 1996، **التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق**، دار مجدلاوي، عمان: الأردن.

١ـ النسق الاجتماعى

النسق الاجتماعى عبارة عن مجموعة من الأشخاص والأنشطة تتميز العلاقات المتبادلة بينهم بقدر من الثبات والاستمرار.

ويعد هذا المصطلح أشمل أسماء الكيانات التى يهتم علم الاجتماع بدراستها. فهو يضم المجتمعات، والتنظيمات، والجماعات، والنظم. فالأمة هى عبارة عن نسق اجتماعى، كما أن مباراة كرة القدم هى أيضاً نسق اجتماعى. والزوجان اللذان يعيشان فى أسرة هما أيضاً نسق اجتماعى. وهنا يحق لنا أن نتساءل عن جدوى استخدام مفهوم بهذا الاتساع. إذا كانت العناصر الداخلة فيه لا تتصف بكثير من السمات المشتركة فيما بينها؟

والرد على ذلك أن السمات المشتركة بين تلك الكيانات الاجتماعية والتى يعبر عنها مصطلح النسق هى سمات فى غاية الأهمية. ذلك أن كل نسق اجتماعى يخلق لنفسه حدوداً تجعله متميزاً عن الأنساق الأخرى. ومتميزاً عن البيئة التى يوجد فيها. كما يخلق داخله حالة من التوازن بين الأنشطة التى تمارس داخله، بحيث يظل قادراً على العمل وعلى أداء وظائفه.

وسوف نرى فيما بعد أن تلك السمات الأساسية تمثل نقطة البدء لأى تحليل سوسيولوجى. فإذا تصدينا لدراسة أى نسق اجتماعى جديد، فإنه يتعين علينا بادئ ذى بدء أن نعين حدوده، وذلك لكى نكتشف ميكانيزمات استمرار تلك الحدود والحفاظ عليها. وتصبح المهمة التالية على ذلك هى التعرف على الأنشطة الرئيسية، ونحاول أن نعرف العلاقات التى تربط تلك الأنشطة ببعضها، وأخيراً كيف تحافظ على حالة التوازن فيما بينها.

٢ـ الوظيفة

إن وظيفة أى عنصر من عناصر النسق الاجتماعى هى ذلك الجزء (الدور) الذى يؤديه للحفاظ على النسق.

من المسلم به اليوم أن هناك علاقة عمل من نوع ما بين أجزاء النسق المختلفة، بحيث أننا نجد أن كل جزء يرتبط على نحو ما بكل جزء آخر، ولا يمكن أن يتغير شئ فى النسق الاجتماعى دون أن يؤدى إلى إحداث سلسلة من التغيرات فى بقية أجزاء النسق. وقد أكد المشتغلون بعلم الاجتماع هذه النقطة مراراً بحيث لم تعد فى حاجة إلى مزيد من التأكيد. ولكن الأمر لم يكن كذلك فى البدايات الأولى

لعلم الاجتماع، حيث كان السلوك الاجتماعى يدرس عادة دون اهتمام يذكر بالنظر إليه فى إطار النسق الذى يحدث فيه.

ويطلق اسم "وظيفى" على عالم الاجتماع الذى يؤكد علاقات التداخل القائمة بين أجزاء النسق الاجتماعى. وإذا كان متطرفاً فى آرائه، فإنه يجتهد كى يثبت أن كل جزء من أجزاء النسق يساهم فى الحفاظ على النسق ويعمل على بقائه، ومن ثم يصبح ضرورياً لا يمكن الاستغناء عنه بحال من الأحول. أما اليوم فإننا نجد أن الشواهد المستقاة من الدراسات الإمبيريقية لا تؤيد هذا الموقف المتطرف. حقيقة أن كل أجزاء النسق تكاد تؤثر على النسق الاجتماعى برمته، إلا أن تلك الآثار ليست كلها إيجابية بالضرورة، أو ليست بالضرورة فى صالح استمرار النسق وبقائه. وكثيراً ما يمكننا القول بعد حدوث تغير معين فى النسق أن عادة معينة أو معتقداً ما لم يكن جوهرياً ولا حيوياً على الإطلاق، وأنه قد يمكن الاستغناء عنه بالفعل. إن الباحث الذى يقوم بالتحليل الوظيفى للمجتمع قد يقع فى اضطراب وتخلط عليه الأمور إذا لم يتعرف بدقة على ميكانيزمات أداء النسق لوظائفه. وما لم يعين الحدود التى تؤدى فيها داخل النسق، وكذلك ما لم يتعرف على البدائل الوظيفية التى يمكن أن تحقق نفس الأهداف بطرق أخرى.

ويميز علماء الاجتماع عادة بين الوظائف الظاهرة والوظائف الكامنة. **والوظائف الظاهرة** هى تلك التى يدركها ويعرفها جيداً الأفراد الفاعلون داخل النمط الاجتماعى أو الثقافى الذى ندرسه. أما **الوظائف الكامنة** فهى تلك التى لا يعرفها الفاعلون فى ذلك النسق والتى تحتاج إلى الكشف عنها عن طريق التحليل السوسيولوجى. وإذا نظرنا مثلاً إلى ظاهرة الغش فى الامتحانات، وجدنا أن وظيفتها الظاهرة (لدى الغشاش) هى تحسين درجاته وتقديراته فى هذا الامتحان، أما وظيفتها الكامنة فقد تكون رغبة ذلك الغشاش فى تأكيد تماسك جماعة رفاقه من الطلاب، وذلك لكى لا يتخلف أو يقل عنهم فى المستوى.

٣- التكامل

التكامل هو ترابط وتماسك أجزاء النسق الاجتماعى لكى يصبح كياناً كلياً موحداً.

والتكامل درجات. ولكن النسق الاجتماعى ينبغى أن يتمتع بدرجة معينة من التكامل، وإلا لم يعد لنا الحق فى أن نطلق عليه اسم "نسق". ولكن الملاحظة

العابرة تدلنا على وجود فروق واختلافات فى درجة التكامل بين نسق وأكثر. فبعض الأسر أكثر تماسكاً من البعض الآخر، وبعض الثقافات تتصدى لمقاومة التغير بقوة، على حين نجد ثقافات أخرى تفتح صدرها لأى مؤثرات تفد عليها. بل إننا نستطيع القول بأنه حتى بالنسبة للكيانات الكبرى غير المتجانسة - كالمدن الكبرى اليوم - يوجد قدر من التكامل الداخلى فيها. ولذلك تدلنا دراسات علم الاجتماع الحديثة على أن المدن التى توجد فيها درجة منخفضة من التكامل تعانى من مشكلات اجتماعية أشد وطأة وأعظم خطراً.

وهناك ثلاثة فروض كبرى ترتبط بفكرة التكامل:

(أ) أن الحياة فى نسق اجتماعى سيئ التكامل أصعب من الحياة فى نسق اجتماعى جيد التكامل.

(ب) أن النسق الاجتماعى ذى المستوى المرتفع من التكامل أقدر على مقاومة التحدى الخارجى من النسق السيئ التكامل.

(ج) أن التحديث والتقدم الصناعى يؤدى عادة إلى تقليل درجة التكامل الاجتماعى.

وتمثل تلك الفروض الثلاثة الشغل الشاغل لبحوث العالم الفرنسى إميل دوركايم طوال حياته، والذى سوف نستعرض آراءه ونظرياته فى جزء لاحق من هذا الكتاب. وقد ظلت تلك القضايا تمثل إحدى بؤر البحث السوسيولوجى منذ أن نشر دوركايم دراسته الكلاسيكية عن **الانتحار** فى عام ١٨٩٧. ويمثل هذا الكتاب أول دراسة إحصائية مكتملة فى علم الاجتماع المعاصر، جمع فيه مؤلفه كماً كبيراً من الشواهد التى تدل على أن معدلات الانتحار تزيد حينما تنخفض درجة التكامل الاجتماعى.

والصعوبة الرئيسية التى تواجهنا فى قياس درجة تكامل نسق اجتماعى معين أنه لم يتم حتى الآن اختراع وسيلة مطلقة لقياس التكامل تتيح لنا – على سبيل المثال – مقارنة درجة تكامل مدينة معينة بدرجة تكامل مصنع معين، أو تكامل أسرة معينة بتكامل أمة معينة. ولكن من اليسير – إلى حد ما – قياس التكامل النسبى لوحدات من نفس النمط، كالدراسة التى أجريت على بعض الأسر الإنجليزية التى اختيرت من بين طبقة اجتماعية معينة فى مكان وزمان معينين. أو الدراسة التى أجريت لقياس تكامل مجموعة من المجتمعات المحلية المكسيكية التى تتصف بنفس الثقافة الأساسية، ولكن الفروق بينها ترجع إلى اختلاف درجة

تعرضها للمؤثرات الخارجية. ويجب أن نلاحظ هنا أن مقارنة درجة التكامل بين أنساق اجتماعية متباعدة ومستقلة عن بعضها استقلالاً كبيراً يمثل عملية تتسم بشئ من الاضطراب وعدم الدقة. وقد أثبتت الدراسات الحديثة وجود درجة من التكامل فى داخل بعض القبائل البدائية تقل عما كان متوقعاً، ودرجة من التكامل فى أحياء المدن الحديثة الكبرى تزيد عما كان متوقعاً.

والملاحظ من ناحية أخرى أنه لا جدال فى أن القرن العشرين قد شهد تغيراً اجتماعياً وثقافياً سريعاً. وأن هذا التغير من شأنه أن يعمل على تخفيض درجة التكامل فى شتى الأنساق الاجتماعية القائمة. وإذا كانت السعادة أيسر تحقيقاً فى داخل الأنساق المتكاملة (أى التى تتصف بدرجة عالية من التكامل)، كما دلت على ذلك دراسات عدة، فلا عجب أن العصر الذى نعيش فيه اليوم قد أصبح أقل إرضاء وإسعاداً للفرد.

٤- الجماعة

الجماعة عبارة عن نسق اجتماعى يتكون من عدد من الأفراد الذين يتفاعلون مع بعضهم البعض ويشتركون فى القيام ببعض الأنشطة المشتركة.

ويترتب على هذا التعريف أن درجة "جماعية" أى جماعة (أى تماسك الجماعة كجماعة، ومدى اتصافها بخصائص الجماعة) هى مجرد اختلاف فى درجة التماسك من جماعة لأخرى أى هى مسألة درجة. والملاحظ أن ذلك يتفق وخبرتنا فى الحياة اليومية، حيث نصادف بعض الجماعات التى تتميز بالاستمرار لمدة طويلة، كالأسرة والهيئة التشريعية. على حين توجد جماعات أخرى لا تكاد تحظى بأى قدر من الاستمرار، كالجمهور المدعو إلى حفلة أو محاضرة معينة، فما تكاد تلحظ وجود تلك الجماعة، حتى تجدها قد انحلت وانتهت.

وقد اصطلح على أن الجماعة ينبغى أن تتكون من ثلاثة أعضاء على الأقل، ويتكون أعضاء الجماعة من أفراد أحياء، وليس من كيانات جمعية أو كيانات مجردة. ولابد أن تكون لدينا دائماً وسيلة ما لتمييز أعضاء أى جماعة عن غير الأعضاء فيها، حتى ولو كان ذلك من خلال وجودهم فى زمان أو مكان معينين. ويجب أن تقوم بينهم علاقات تفاعل، أى أن كلاً منهم يتفاعل مع بقية أعضاء الجماعة بحيث تصبح هناك شبكة واحدة من العلاقات التى تربط بينهم.

والملاحظ أن مصطلح "جماعة" من المرونة بحيث يكاد يكون من المتعذر

إساءة استخدامه. وإن كان الخطأ أن يطلق أحدنا على حشد من الناس لا تقوم بين أفراده علاقات التفاعل المشار إليها اسم "جماعة". وننبه بهذه المناسبة إلى أن "الحشد" هو عبارة عن مجموعة من الأفراد الذين تربط بينهم سمة مشتركة، ولكن لا تقوم بينهم علاقات تفاعل. فالباعة الجائلون مثال للحشد، أو مجموعة الناس، ولكنهم لا يشكلون جماعة بالمعنى العلمي المحدد هنا.

٥ـ التنظيم

التنظيم عبارة عن نسق اجتماعي مستمر له هوية جماعية واضحة، وقائمة محددة تحديداً واضحاً من الأعضاء، وبرنامج للنشاط الرتيب (المتكرر) الموجه نحو تحقيق أهداف واضحة، وله كذلك إجراءات محددة لضم أعضاء جدد إليه.

وتتضح الهوية الجماعية المتميزة للتنظيم من خلال الاسم الذى يطلق عليه، وهو اسم يعرفه كافة أعضاء التنظيم. كما يعرفه عدد كبير من الناس من خارج هذا التنظيم. والغالب أن يوحى اسم التنظيم بقدر كبير من المعلومات عن أهداف التنظيم، ومكانه، وانتمائه، كما يتيح ممارسة سلوك جماعى معين دون أى لبس. ومن شأن قائمة الأعضاء أن تساعد التنظيم على التعرف على أعضائه، كما تمكنه من تقسيم الناس – فى لحظة معينة – إلى أعضاء وغير أعضاء. وقد يكون برنامج نشاط التنظيم شاملاً أو محدوداً، ولكنه ينص دائماً على بعض الأنشطة المحددة الموجهة نحو تحديد أهداف بعينها، كما يتضمن دائماً نوعاً من الخطة الزمنية لترتيب وتنظيم هذه الأنشطة مقدماً. وتضمن إجراءات تجديد الأعضاء ضم أعضاء جدد إلى التنظيم ونقل الأعضاء القدامى من موقع إلى آخر داخل التنظيم.

ومن أمثلة التنظيمات التى نتحدث عن سماتها هنا: الأسرة، والحزب السياسى، والمصنع، والعصابة الإجرامية، والكتيبة العسكرية، والبنك، والمصلحة الحكومية، والأوركسترا السيمفونى. وعلينا أن نحذر الوقوع فى خطأ اعتبار كل الجماعات الدائمة تنظيمات. فالسلالات (الأجناس)، والجماعات العرقية، والطبقات الاجتماعية، وجماعات الجوار – على سبيل المثال – ليست تنظيمات بالمعنى الذى حددناه هنا للتنظيم.

فالتنظيمات تتميز ببعض السمات المحددة بغض النظر عن الزمان أو المكان الذى تظهر فيه. ومن تلك السمات وجود **خريطة التنظيم** التى تحدد مسميات ووظائف المناصب والمواقع الرئيسية داخل التنظيم، وترسم لشاغلى تلك المواقع

متى وكيف يتفاعلون (أى يتبادلون التأثير والتأثر) مع بعضهم البعض. ومن تلك السمات أيضاً وجود **تسلسل هرمى** معين يرتب الأعضاء فى درجات فوق بعضها بدءاً من أعلى المناصب ووصولاً إلى أدناها، محدداً لكل منصب منها واجباته وجزاءاته. ومنها أيضاً المعايير (وهى القواعد الرسمية أو غير الرسمية) التى تحكم سلوك الأعضاء تجاه بعضهم البعض وتجاه الأفراد من خارج التنظيم. ومن سمات التنظيم وجود **نظام للمكافآت والعقوبات** لحمل الأعضاء على الامتثال لقواعد التنظيم، **وإجراءات** محددة لتجنيد أعضاء جدد، وترقية الأعضاء الموجودين، أو تخفيض درجتهم. وأخيراً، وليس آخراً، فلكل تنظيم **رصيد** من الأشياء المادية التى يحتاج إليها لتنفيذ برنامج التنظيم.

٦ـ المجتمع

المجتمع عبارة عن نسق اجتماعى مكتف بذاته، ومستمر فى البقاء بفعل قواه الخاصة، ويضم أعضاء من الجنسين (ذكوراً وإناثاً) ومن جميع الأعمار.

فالمجتمع جماعة من الأفراد الأحياء، وليس مجموعة من الأفكار المجردة. وقد وصفه أحد علماء الاجتماع بأنه: "أكبر جماعة ينتمى إليها الفرد". وهو مكتف بذاته بمعنى أن له رصيداً من الإجراءات والوسائل الخاصة بالتعامل مع البيئة، وإطالة وجوده إلى مالا نهاية.

ويكاد يكون من المستحيل تعيين الحدود الدقيقة لمجتمع ما. والأصح أن تلك الحدود ترسم بطرق مختلفة لتحقيق أغراض مختلفة فى كل مرة، أى حسب الأحوال وحسب الهدف من عملية تعيين الحدود. وبوسعنا مثلاً أن نتكلم عن المجتمع المصرى، وأحياناً عن المجتمع العربى، بل وأحياناً أخرى عن المجتمع الدولى، وذلك بعد أن أصبحت شبكة الاتصال فى هذه الأيام قادرة على الربط بين كافة سكان الأرض تقريباً والتأليف بينهم فى جماعة واحدة ولأغراض معينة. كما نلاحظ – من ناحية أخرى – أن المجتمع المكتمل (وليس الكامل) والقادر على البقاء مستقلاً قد يكون مجتمعاً صغيراً كل الصغر. فبعض قبائل غينيا الجديدة لا يزيد عدد أعضاء الواحدة منها عن ألف نسمة، ولها لغتها الخاصة ودينها الخاص، ونجدها مزودة بالأساليب والوسائل التى تمكنها من التعامل مع البيئة المحيطة، ومن الاستمرار عبر الأجيال جيلاً بعد الآخر.

ونود أو نوضح هنا أن المعنى الذى ذكرناه لمصطلح "مجتمع" هو المعنى

المتداول فى الكتابات السوسيولوجية الحديثة، ولكن من الطبيعى أننا لا نستطيع أن نمنع أحداً من استخدام نفس الكلمة بمعان أخرى لهذا الغرض أو ذاك. وكما تدلنا على ذلك قراءاتنا وأحاديثنا. فكثيراً ما تستخدم كلمة مجتمع للإشارة إلى مجموع العلاقات الاجتماعية، أو إلى كيان عام غامض يكمن وراء العادات الاجتماعية العادية ويعمل على فرضها على الناس (كالقول مثلاً: إن المجتمع لا يقر تدخين المراهقات للسجائر). كما اصطلحت اللغة الإنجليزية على استخدام كلمة مجتمع أحياناً للإشارة إلى الطبقة العليا فى المدن، وقد نقل هذا الاستخدام إلى اللغة العربية، عندما نقول: "المجتمع الراقى".

٧ـ الثقافة

تتكون الثقافة من أنماط النشاط الإنسانى المكتسبة والمتوارثة اجتماعياً ومن الأشياء (العناصر المادية) المرتبطة بها.

وأهم شئ يجب أن نعرفه عن الثقافة أنها تعنى دائماً المعرفة الفنية بشئ ما: كيف تزرع القمح، كيف تنظم حفل زفاف، كيف تستخدم فعلاً معيناً (فى اللغة) فى صيغة المستقبل، كيف تثأر من جيش مهزوم، كيف تصنف أوراقاً حكومية... إلخ. هذا علاوة على الأشياء التى يصنعها الإنسان لتجسيد هذه المعرفة، وفى الأمثلة التى ذكرناها تكون من هذه الأشياء: الحراث، وخاتم الزفاف، وكتاب النحو، والنصب التذكارى، وبطاقة الفهرس... إلخ.

كما نميز أحياناً بين بعض جزئيات أو عناصر الثقافة، فنطلق عليها اسم **عناصر أو سمات ثقافية**، وبين الكيانات الثقافية الأكبر والتى تسمى **مركبات ثقافية**. فخاتم الزواج هو عبارة عن عنصر ثقافة، أما مجموعة الممارسات المرتبطة بالزواج والتى تضم حمام العروس، ووصيفات الشرف، وطرحة العروس، والتاج الذى تلبسه، وعقد الزواج، وحفل الزواج، ومسلك العريس فى تلك الليلة ومسلك أهله وأصدقائه، وأغانى الأفراح... إلخ فكل ذلك مركب ثقافى.

٨ـ النظام

النظام (الاجتماعى) عبارة عن نمط متميز من النشاط الاجتماعى والقيم التى تدور حول إحدى الحاجات الإنسانية الأساسية والتى تصاحبها طرق متميز للتفاعل الاجتماعى.

والنظام الاجتماعى بهذا المعنى ظاهرة ثقافية وتنظيمية فى نفس الوقت. فهو يتضمن "الوصفات" التى وضعها المجتمع وتراكمت عبر الأجيال والخاصة

بالتعامل مع إحدى الاحتياجات الأساسية، كما يتضمن الأفراد والتنظيمات القائمة بأداء هذا العمل.

ونلاحظ هنا أن تقسيم المجتمع إلى نظم أسرية، ودينية، واقتصادية، وسياسية، وتربوية وترويحية هو تقسيم كلاسيكي وقابل للتطبيق على أي مجتمع من أي حجم وفي أي مرحلة من مراحل تطوره. وتعد هذه النظم (أو الأربعة الأولى منها على الأقل) نظماً اجتماعية أساسية.

وهناك فضلاً عن ذلك عديد من أنماط النشاط الاجتماعي على نطاق أصغر والتي تتلاءم مع التعريف السابق تحديده. من هذا مثلاً الأنشطة في مجال: العلم، والقانون، والعمل الخيري، وسباق الخيل... إلخ والتي يمكن دراستها بوصفها نظماً اجتماعية.

كما يستخدم مصطلح نظام أحياناً للدلالة على أي مؤسسة كبيرة لها هيئة موظفين أو عاملين دائمين خاصة بها، كالمتحف أو الملجأ. كما يطلق علماء الاجتماع أحياناً مصطلح نظام كلي (وهو هنا مؤسسة) على أي مؤسسة كبرى يخضع العاملون فيها لنظام ثابت طوال الأربع والعشرين ساعة يومياً. ومن أمثلة هذه المؤسسات: السجون، والمستشفيات، والأديرة، والوحدات العسكرية العاملة.

٩- القيمة

القيمة هي تصور المجتمع للشئ المرغوب، وهو التصور الذي يؤثر على السلوك الاجتماعي لمن يعتنق هذه القيمة.

فالقيمة بعبارة أخرى هي فكرة يؤمن بها الفرد، وإن كان يشاركه فيها غالباً أصدقاؤه وأقاربه، وتحدد له اختيار ما يفعله وكيف يفعله، كما تحدد له ما هو الشئ العزيز، أو الثمين، أو الجذاب، أو الملائم... إلخ.

وقد اجتهد الفلاسفة الاجتماعيون – منذ أفلاطون – في دراسة موضوع القيمة والحديث عنه. وقد حاول أفلاطون على سبيل المثال تعريف الشئ المرغوب بأنه الشئ الطيب أو الصالح، وأن الصالح للأفراد هو الصالح للمجتمع. والمشكلة الأساسية هنا هي أنه على الرغم من أن الرغبة هي أشمل صفات الاستجابات الإنسانية وأكثرها عمومية، إلا أنها ليست أكثرها ثباتاً واستقراراً.

وقد اهتم كل من علم النفس وعلم الاقتصاد بوضع نظم محكمة ودقيقة لفهم

التغيرات التى تطرأ على القيمة، وهى التغيرات الراجعة إلى ندرة الأشياء المرغوبة أو وفرتها، وإلى وجود البدائل أو عدم وجودها، وكذلك إلى زيادة أو نقصان الإشباع عند تحقيق هدف معين. ومع ذلك فمازال مفهوم القيمة من أعقد الأفكار فى العلوم الاجتماعية وأكثرها إثارة للحيرة. وعلينا هنا أن نحذر القارئ من التفسيرات والشروح التى تبالغ فى تبسيط مفهوم القيمة، لأن حقيقة الأمر فى واقع الحياة الاجتماعية ليست بهذه البساطة. حقيقة أن القيمة ترتبط على نحو ما بالفائدة، ولكن شرب الماء فى الظروف العادية ليس شيئاً بالغ القيمة، رغم ضرورته أو فائدته التى لاشك فيها. كذلك نعرف أن القيمة تزداد بفعل الندرة، ولكن الأمهات الحوامل لا يشتقن أبداً إلى إنجاب خمسة توائم عندما يحين الوضع. وقيم الفرد مستمدة إلى حد كبير من ثقافته، ولكن من الخطأ مع ذلك الاعتقاد أن القيمة التى تؤمن بها جماعة معينة تحظى بتأييد ودعم كافة أعضاء تلك الجماعة. إن عالم الاجتماع الحصيف لا يشرع فى دراسة القيمة إلا إذا تسلح بالحذر وبحث عن البراهين القوية قبل أن يصدق أن فعلاً معيناً قد تم أو حدثاً معيناً قد وقع لأن شخصاً ما أو جماعة معينة تنسب إليه قيمة معينة.

١٠ـ الاتجاه

الاتجاه فكرة ترسم للفرد كيف يسلك على نحو ما فى موقف معين.

وتتمتع مجموعة المعتقدات التى تكون اتجاهاً معيناً لدى الفرد بقدر كاف من الاقتناع، الواعى أو غير الواعى، بحيث أن استجابة ذلك الفرد لموقف معين تكون محددة سلفاً. والاتجاهات تنطوى على قيم، أو هى بمثابة تجسيد لتلك القيم، وأغلبها مستمد من أقاربه وأصدقائه وغيرهم ممن يرتبط بهم فى حياته.

ولقد أصبح ميدان قياس الاتجاهات من الفروع المزدهرة فى البحوث الاجتماعية منذ ما يزيد على نصف قرن. وقد أجريت مسوح الاتجاهات (دراسات مسحية شاملة للتعرف على الاتجاهات Attitude Surveys) حول كل الموضوعات التى يمكن أن نتصورها بدءاً من أمانة الخادمة، وحتى مخاطر الرحلات الفضائية بين الكواكب. ووجه القصور الكامن فى مسوح الاتجاهات أنها تتعرف على الاتجاه (وهو كما قلنا تحديد مسبق لسلوك الفرد) عن طريق سؤال الشخص موضوع البحث: كيف سيستجيب لموقف معين عندما يقع، بدلاً من أن تنتظر وتلاحظ سلوكه

الفعلى عند مواجهته هذا الموقف[1]. وإذا كان وصف الاتجاه قائماً على الوصف اللفظى لصاحبه، فإن الباحث يواجه فى هذه الحالة ثلاث مشكلات متداخلة ومترابطة هى:

- هل يدلى المبحوث بالحقيقة (أى حقيقة اتجاهه هو)؟

- هل هو يعرف فعلاً اتجاهه حقيقة؟

- هل يمكن التنبؤ بسلوكه من واقع ما يقوله؟

إن عملية قياس الاتجاهات يمكن أن تكون عظيمة الفائدة إذا ما حلت تلك المشكلات الثلاث، وأمكن للباحث أن يجيب عليها عن طريق الربط بين التقارير اللفظية التى يدلى بها المبحوث وملاحظتنا على سلوكه الواقعى. (كالرجل الذى يؤيد فكرة تنظيم النسل بحماس ولديه سبعة أطفال متفاوتى الأعمار وزوجة حامل، أو المثقف الذى يدعو لأفكار اشتراكية بحماس وهو يعيش حياة بورجوازية مترفة).

١١ـ المعيار

المعيار هو المستوى القياسى للسلوك فى جماعة معينة، وهو يتيح للفرد أن يحدد سلفاً نوع الحكم الذى سيصدره الآخرون على أفعاله، كما يزود الآخرين بمعايير (محكات) الموافقة أو الرفض.

والحقيقة الهامة حول المعيار أنه يعلن وينتشر بواسطة جماعة معينة، وأنه يرتكز على قيم الجماعة. وكان أول ما لفت نظر الباحثين الذين درسوا المعايير دراسة مقارنة أن هناك بعض الأفعال التى قد تعد مذمومة فى ثقافة معينة، تكون هى نفسها محمودة فى ثقافة أخرى مختلفة. فالواجب المفروض على الفلاح الصينى فى عام المجاعة هو أن يشبع والديه الكبار فى السن ولو على حساب أطفاله الرضع حتى ولو هلكوا من الجوع. أما الرجل الاسكيمو الصالح فعليه – إذا حدث نقص فى الطعام – أن يترك والديه الكبيرين فى السن وحيدين على الثلج ليواجها الموت فى شجاعة. ونجد عند العبريين القدماء أنه كان يتعين على الأخ

---

(١) نلاحظ فى الاستفتاءات أو استطلاعات الرأى التى تتم قبل الانتخابات فى البلاد الغربية، وفى كثير غيرها من أنواع بحوث الاتجاهات، إن ذلك العيب يكون حتمياً، ولا يمكن تجنبه أو تلافيه، لأن جوهر عملية استطلاع الرأى هى التنبؤ بسلوك الناخب ومعرفة ما سوف يفعله فى موقف آت.

الأصغر – كواجب مقدس – أن يتزوج أرملة شقيقه الأكبر بعد وفاته، على حين نجد أن المستشارين الدينيين للملك الإنجليزى هنرى الثامن يقررون أن زواجه بكاثرين أوف أراجون كان بمثابة زنا لأنها كانت أرملة شقيقه الأكبر. ويلخص ويليام جراهام سمنر هذا الموقف فى كتابه العظيم "الأساليب الشعبية": "إن السنن الأخلاقية (المعايير) يمكن أن تجعل أى شئ صحيحاً أو تجعل أى شئ خاطئاً"[1]. ويهتم علماء الاجتماع المحدثون فى المقام الأول بالموضوعات الأساسية الكامنة وراء الأنساق المعيارية أكثر من اهتمامهم بتنوعها الظاهرى. من هذا مثلا أن كل التنظيمات تتطلب من أفرادها الولاء، أما هذا الولاء نفسه فيتم التعبير عنه بطرق مختلفة تتباين من ثقافة لأخرى. ويبدو أن كل الأنساق الاجتماعية تميز بين السلوك الحميد والسلوك المذموم، على الرغم من أن فعلاً معيناً قد يكون محموداً فى نسق معين، ولكنه مذموم فى نسق آخر.

١٢ـ الانحراف

الانحراف هو السلوك الذى يخرق المعايير السائدة فى النسق الاجتماعى ويعتدى عليها، ويستثير جهوداً إصلاحية من جانب أجهزة ذلك النظام لرد هذا المعتدى إلى جادة الصواب.

ويمثل السلوك المنحرف أحد موضوعات الاهتمام الرئيسية لعلم الاجتماع منذ الدراسات الرائدة التى تمت فى القرن التاسع عشر عن "الجريمة، والرذيلة، والبؤس". ويمكن تصنيف السلوك الذى يعد اليوم منحرفاً إلى واحد من الفئات التالية:

(أ) **الجريمة**: وتضم الجرائم التقليدية ضد الأشخاص والثروة والدولة، والابتكارات الإجرامية الحديثة كجرائم أصحاب الياقات البيضاء (أى جرائم الأشخاص الذين يعتبرهم المجتمع محترمين، وليسوا من نوع المجرمين التقليديين) كجرائم الرشوة، واستغلال النفوذ، والاعتداء على المال العام، ومخالفات نظم المرور، وبعض صور الخروج على القانون الأخرى.

(ب) **الانحراف الجنسى**: كالجنسية المثلية، والزنا، والبغاء.

---

(١) انظر عرضاً تحليلياً نقدياً لهذا الكتاب الهام باللغة العربية فى المرجع التالى: أحمد أبوزيد وزملاؤه، **دراسات فى الفولكلور**، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٢. ويتضمن الكتاب عرضاً لعدد من أمهات الكتب العالمية عن الأساليب الشعبية، والأدب الشعبى، والعادات والتقاليد الشعبية وغيرها.

(ج) **الأشكال المنحرفة من الاستهلاك**: وخاصة الإدمان على الكحول وعلى العقاقير المخدرة.

(د) **أساليب الحياة ذات الطابع الانحرافي**: مثل الحياة فى مناطق الملاهى المنحطة الموجودة فى أغلب المدن الأوروبية والتى كان يتردد عليها العمال المهاجرون والسكيرون والمتشردون، والعصابات التى تستخدم الدراجات البخارية، والمقامرين المحترفين، وطلاب الجامعات الفاشلين.

والسلوك الانحرافى هو بطبيعة الحال سلوك نسبى، كما أن السلوك الذى يعد خروجاً على معايير جماعة معينة، قد يعد هو نفسه ممتثلاً لمعايير جماعة أخرى. ومع ذلك فلا يصح أن نخلط بين السلوك المنحرف ومجرد عدم الامتثال لثقافة المجتمع. لأن السلوك المنحرف يمثل بوضوح اعتداء على قيم النسق الاجتماعى الذى لا يستطيع الفرد المنحرف أن يتملص منه تماماً. حتى ولو كان هذا الفرد محاطاً بمجموعة من الأصدقاء الذين تتعارض قيمهم مع قيم النسق الأكبر الذى ينتمون إليه جميعاً.

١٣ـ التفاعل

التفاعل هو العملية التى بمقتضاها تتيح للأفراد الذين يتصلون ببعضهم أن يؤثر كل منهم على الآخرين ويتأثر بهم فى الأفكار والأنشطة على السواء.

ولهذا نرى أن التأثير **المتبادل** هو جوهر عملية التفاعل. فمن الممكن أن نصف شخصين بأنهما متفاعلين إذا كان نشاط كل منهما يتأثر بنشاط الآخر. وعملية التفاعل قد تستمر لسنوات طويلة، وقد لا تستغرق سوى لحظات قليلة. والرموز هى الوسيلة السائدة للتفاعل بين البشر عادة. والرمز هو علامة لها معنى مشترك بالنسبة للأفراد الداخلين فى عملية التفاعل. وجميع الكلمات التى نستخدمها إنما هى رموز، وكذلك كثير من الحركات والإيماءات والأشياء.

ويعد التفاعل واحداً من أهم المفاهيم فى علم الاجتماع، ويعتبره بعض المشتغلين بهذا العلم شاملاً لكل موضوعات الدراسة، حيث يعدون التفاعل هو موضوع علم الاجتماع. أما فى الواقع فإن موضوع التفاعل لا يمكن تناوله إلا بشكل غير مباشر، وذلك لأن العملية نفسها تنطوى على الاتصال بين العقول وتحول للمعانى، وبعض ذلك يستعصى دائماً على الملاحظة المباشرة.

١٤ـ الدور

الدور هو نمط السلوك المتوقع من الشخص الذى يشغل وضعاً اجتماعياً معيناً أثناء تفاعله مع الأشخاص الآخرين الذين يشغلون أوضاعاً اجتماعية أخرى داخل النسق.

ونلاحظ هنا أن توقعاتنا تتجه نحو شاغلى الأوضاع الأخرى، الذين أتوقع منهم أنا – كشاغل لوضع معين – أن يتصرفوا معى فى موقف معين على نحو معين. (ونلاحظ هنا بوضوح أن الأشخاص الذين يتوقعون منى سلوكاً معيناً فى موقف معين هم شاغلوا الأوضاع الاجتماعية الأخرى). وتنبنى توقعاتهم تلك على أساس نوعين من المعلومات هما: معلوماتهم عن المعايير التى تحكم هذا الموقف وخبراتهم المألوفة بالسلوك الفعلى الذى يمارسه بقية الناس فى مواقف مماثلة. ومن الصعب الفصل بين هذين النوعين من المعلومات سواء نظرياً أو عملياً، لأنهما ينصهران فى بعضهما ويمتزجان فى كل لحظة فى حياتنا الاجتماعية. فالمعايير التى تحد لنا كيف ينبغى أداء دور معين تتعدل باستمرار على أساس معرفتنا بكيفية أداء الناس لذلك الدور فعلاً. والملاحظ أنه كلما ابتعد أداء الدور عما هو متوقع بعض الشئ، كلما تعدل الدور إلى حد ما.

والأدوار أنواع، فهناك أدوار مكملة (كدور الزوجة بالنسبة للزوج)، وهناك أدوار متماثلة أو متطابقة (كدور الصديق إزاء الصديق). ويتضمن كل من الأدوار المكملة والمتماثلة فى داخلها معايير للتبادل، معنى هذا أن أداء شخص لدوره أداء سليماً يتطلب أن يؤدى الطرف الآخر دوره على نحو سليم أيضاً. إذ أن أداء الدور بشكل لا مبال أو قليل الاهتمام يبدو عادة أنه ينطوى على ظلم للطرف الآخر. ويبدو أن كلاً منهما يكاد يجد صعوبة فى أن يؤدى بنفس الكفاءة كافة الأدوار المطلوب منه أداؤها فى الجماعات المختلفة التى ينتمى إليها. (فالأستاذ الذى يؤدى دوره فى الجامعة كمعلم وباحث كفؤ قد يقصر فى أداء دوره كأب، أو إذا أدى الدورين بكفاءة – كمعلم وكأب – فقد يقصر فى أداء دوره كابن – نحو أبيه – أو كجار وهكذا). وهناك نوع آخر من المشكلات ينشأ حينما يختلف بعض الأشخاص الذين يشغلون أدواراً مرتبطة ببعضها على تعريف دور كل منهم (والمثال التقليدى لذلك تصور الأب عن دور ابنه إزاءه، وتصور نفس الابن عن دوره نحو أبيه وعن دور أبيه نحوه).

وعلى الرغم من أن مفهوم الدور يعتمد على نوع من التشبيه بعالم المسرح، إلا أننا لا يصح أن نأخذ هذا التشبيه بمعناه الحرفي. فالممثل على خشبة المسرح "يمثل" أي أنه يتظاهر بأنه شخصية معينة ليست هو في الحقيقة. أما الإنسان الذي يؤدي دوراً في المجتمع فهو لا يخفي شخصيته أو يطمسها ولكنه يحقق هويته في الواقع. وإذا خالج الشخص وهو يؤدي دوراً مهماً في المجتمع أنه يمثل هذا الدور، فإن ذلك يعد في هذه الحالة دليلاً على أنه قد جانب الصواب في أداء هذا الدور (فالزوج الذي يشعر أنه يمثل تجاه زوجته مشاعر الود والألفة، زوج فاشل في التقييم الاجتماعي، بغض النظر عن الأسباب الفعلية وراء ذلك).

١٥ـ التنشئة الاجتماعية

التنشئة الاجتماعية هي العملية التي تستهدف تأهيل الفرد للمشاركة في نشاط جماعة معينة عن طريق تعلم المعايير والأدوار التي تتوقعها الجماعة وتقرها.

ويمكن أن نعتبر عملية التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة نظراً لأن الأدوار الخاصة بوضع اجتماعي معين لا تكتسب عادة دفعة واحدة بمجرد اكتساب الفرد لهذا الوضع، ولكنها تتعلم مرة ومرات على امتداد فترة شغل الإنسان لهذا الوضع. فالأب لا يحيط بكل جوانب دوره الجديد بمجرد ميلاد طفل له، ولكنه يعرف جانباً منه وابنه رضيع، ثم وابنه في مرحلة ما قبل المدرسة، ثم يتعدل هذا الدور وتتعين إضافة معلومات وخبرات إليه عند التحاق هذا الابن بالتعليم، ثم يدخل هذا الدور في مرحلة جديدة باستقلال الابن بعد العمل أو الزواج وهكذا، فاكتساب الدور وتعلمه يتم بشكل متصل.

وعلى الرغم من أن التنشئة الاجتماعية ينظر إليها عادة من جانبها الإيجابي، بمعنى أنها تنطوي على تعلم شئ ما، إلا أنها مع ذلك تنطوي دائماً على خسائر ومكاسب في نفس الوقت (أي على إضافة معلومات وإسقاط أو تجاهل معلومات أخرى)، نظراً لأن شغل وضع اجتماعي جديد يعني دائماً ترك موضع سابق، وبذلك يتخلى الشخص عن بعض الأنشطة القديمة بمجرد اكتساب أنشطة جديدة. فاكتسابي لهجة جديدة في الحديث أو لغة جديدة يعني تركي للغة التي كنت استعملها من قبل، واكتسابي لعادات طعام جديدة (حضرية مثلاً) يعني تركي لعادات طعام سابقة (الريفية مثلاً).. وهكذا. ولكي يتمكن شخص خارجي من شغل وضع اجتماعي جديد بشكل ناجح، وأداء الأدوار المرتبطة بهذا الوضع أداء سليماً، يتعين

عليه أن يكتسب صورة جديدة عن نفسه، ويكتسب كذلك مجموعة من الزملاء الجدد، والإنجازات الجديدة، وربما من القيم الجديدة أيضاً فى بعض الأحيان.

وهناك بعض الأشكال الأساسية للتنشئة الاجتماعية فى كل مجتمع كتربية الوالدين للفرد داخل الأسرة، والتعليم فى المدرسة، والتلمذة على مهنة أو حرفة معينة، والمحاولة والخطأ، والتقليد، واكتساب العقيدة الدينية. وتنطوى عملية التنشئة الاجتماعية التوقعية على تعلق الفرد بجماعة معينة أو ادعائه الانتماء إليها، بينما هو لا ينتمى إليها فى الواقع فعلاً، ولكنه يتمنى أن يصبح عضواً فيها (والأمثلة على ذلك كثيرة فى حياتنا اليومية، وأكثر ما تكون شيوعاً بين أفراد الطبقة الوسطى الصغيرة فى بلادنا).

١٦ـ الصراع

الصراع يكون عادة حول القيم، أو المكانة، أو القوة، أو الموارد المحدودة أو النادرة، ولا تقتصر أهداف الأطراف الداخلة فى علاقة الصراع على مجرد الفوز بامتياز معين وحسب، ولكنها تتعدى ذلك إلى الرغبة فى إخضاع الخصوم.

وتحدث مثل هذه الصراعات بين أفراد أو بين جماعات أو بين أفراد وجماعات. وهى موجودة بشكل أساسى وهام فى كل نسق اجتماعى على الإطلاق، اللهم فيما عدا بعض الجماعات اليوتوبية (المثالية والخيالية التى لا وجود لها فى الواقع) المحدودة النطاق، التى تستهدف فى المقام الأول تقليل الصراعات إلى أدنى حد.

والصراع يكون مصحوباً عادة – ولكن ليس دائماً – بمشاعر كراهية قوية. حقيقية أن هناك بعض أنواع الصراع التى يبدو أنها تنشأ عن بعض المشاعر والأحاسيس فحسب، ومن ثم فليس لها أى أهداف تكتيكية (مثل إتلاف مقاعد المواصلات العامة أو دور السينما، أو إتلاف دهان السيارات الفارهة التى يقوم بها الصغار، والكبار أحياناً. فهذه تنشأ عن مشاعر وأحاسيس من جانب القائم بالإتلاف إزاء جهاز النقل العام أو المجتمع الكبير أو ضد صاحب تلك السيارة، ولكنها لا تهدف إلى تحقيق هدف معين أو تعديل محدد فى موقف الخصم الذى نعتدى عليه). وهناك أنواع أخرى من الصراع تكاد تخلو تماماً من الأحقاد والضغائن، كالمفاوضات التى تتم بين الإدارة والعمال فى أحد المؤسسات الصناعية فى البلاد ذات التقاليد النقابية العريقة. على حين نجد أنواعاً أخرى من الصراع –

كالمباريات الحاسمة وذات المستوى الرياضى الممتاز – التى تخلق مشاعر الحماس والإثارة أكثر مما تثير مشاعر العداوة والكراهية. وجدير بالملاحظة أن الدراسة السيكولوجية (النفسية) للصراع أكثر تعقيداً من الدراسة السوسيولوجية (أى التى يقوم بها علم الاجتماع). إذ نجد أن الصراع بين الجماعات يخلق أفعالاً وحشية تتصف بالقسوة إزاء الطرف الآخر – كالتعذيب والتشويه والقتل – لا وجه للشبه بينهما وبين سلوك التذييات الدنيا، ويبدو أنها راجعة على نحو ما إلى احتكار الإنسان للمثل العليا الرفيعة. ومع ذلك فيبدو من الصعب تحليل الدوافع إلى ممارسة العنف والقسوة باسم الحفاظ على قيم الجماعة، حيث نجد أن الأفعال التى تتصف بالقسوة تعتمد – على الأرجح – على الحسابات السياسية الهادئة أكثر من اعتمادها على مشاعر الغضب.

ويعتبر أغلب الدارسين المعاصرين الصراع سمة أساسية من سمات التنظيم الاجتماعى، وذلك لاعتبارين مختلفين ولكنهما مترابطين ببعضهما البعض. الاعتبار الأول أن الحفاظ على حدود الجماعات الاجتماعية المنظمة يتم من خلال ميل أعضاء كل جماعة إلى تقسيم العالم إلى "نحن" (أعضاء جماعتنا)، "وهم" (أى أعضاء الجماعة أو الجماعات الأخرى). فلولا هذا التضامن التلقائى لانهار الوجود المستمر لأغلب الأنساق الاجتماعية القائمة. والاعتبار الثانى أن كثرة الصراعات الاجتماعية فى المجتمع الحضرى الحديث تقسم المواطنين تبعاً لأسس كثيرة متباينة (تقسيم على أساس النشأة، على أساس الدين، على أساس الأجيال، على أساس العقيدة السياسية، على أساس الوضع الاقتصادى... إلخ)، بحيث أن أعداء الشخص فى موقف معين قد يصبحون حلفاءه فى موقف آخر، ومن هنا يحتفظ المجتمع بتماسكه ككل لأنه لا توجد قضية واحدة أياً كانت تستطيع أن تقسم أى مجتمع إلى شطرين منفصلين تماماً (ولو حدث ذلك لفقد هذا المجتمع مقوّم وجوده الحقيقى).

ويستخدم مصطلح الصراع أحياناً بمعنى خاص تماماً مختلف عن المعانى السابقة عندما يشير إلى عدم انسجام القيم أو المعايير التى تخلق لدى الفرد توتراً عاطفياً. فصراع الدور – على سبيل المثال – يعنى أزمة المراهق الذى يرى أصدقاؤه أنه قد نضج وبلغ مبلغ الرجال، على حين يرى والداه أنه مازال بعد طفلاً. والصراع بهذا المعنى ظاهرة جديرة بالدراسة، ولكنه لا يتصل اتصالاً مباشراً بالصراعات الظاهرة بين الأشخاص أو الجماعات (وإن بدا وثيق الصلة بها

أحياناً).

١٧ـ المكانة

المكانة هى المكان أو الموضع الذى يشغله الشخص فى سلم التأثير داخل نسق اجتماعى معين.

فإذا قلنا أن الشخص (أ) يشغل مكانة أعلى من الشخص (ب)، فإننا نعنى أن تلك الجماعة (التى ينتمى إليها هذان الشخصان) تضع (أ) فى منزلة أعلى من (ب). ويتضح هذا التفضيل – أو التقدير – عادة فى إعطاء الشخص (أ) نصيباً أكبر من موارد الجماعة (مثلاً مرتباً أو دخلاً أعلى)، ونصيباً أكبر من القدرة على التحكم فى أنشطة تلك الجماعة (سلطة أكبر)، وحقوقاً أكبر، وقدراً أكبر من أعباء المسئولية. وهناك أنواع مختلفة من المكانة، منها الموقع على سلم التدرج الهرمى، و"المكانة السوسيومترية"[1] داخل الجماعة، والطبقة الاجتماعية، والهيبة Prestige.

ويقوم هيكل كل تنظيم فى المجتمع على تدرج هرمى للأوضاع الموجودة فيه، بدءاً من أرفع وضع ووصولاً إلى أدنى وضع فى هذا السلم، ويشمل هذا التدرج كافة – أو على الأقل غالبية – أعضاء ذلك التنظيم. ويكون ترتيب تلك الأوضاع واضحاً أشد الوضوح، كما أن الفروق بين الأوضاع المتدرجة فى الحقوق والواجبات والامتيازات تكون هى الأخرى محددة تحديداً واضحاً. أما المكانة السوسيومترية، أو القيادة غير الرسمية، فتمثل ظاهرة مرتبطة بذلك ولكنها تنشأ عادة بشكل تلقائى فى الجماعات غير المنظمة. وقد يعد تطور نظام المكانة (أو ترتيب المكانات فى سلم معين) على أساس خصائص الأفراد أمراً حتمياً عندما يدخل مجموعة من الأفراد المتكافئين فى علاقة تفاعل لفترة طويلة من الوقت. وليس هذا الميل قاصراً على البشر وحدهم، إذ نجد كافة الرئيسات، وكثيراً من الحيوانات الدنيا تطور لنفسها نظماً مختلفة للمكانة واضحة المعالم على أساس

---

(١) نسبة إلى السوسيومترى (أى القياس الاجتماعى)، ويعنى قياس شبكة العلاقات الاجتماعية التى تكون البناء الداخلى للجماعات الاجتماعية. وتكشف دراسة القياس الاجتماعى كذلك الأشكال المعقدة التى تنشأ عن قوى الجذب والنفور بين أعضاء الجماعات. وجرت العادة أن تعرض النتائج الأساسية للقياس الاجتماعى فى صور رسوم بيانية يطلق عليها اسم السوسيوجرام. والسوسيوجرام عبارة عن خريطة للجماعة تستخدم فيها رموز ملائمة تشير إلى الاختيارات الإيجابية والسلبية لأعضاء الجماعة. وقد تكون الاختيارات المحيطة بشخص معين كثيرة فى بعض الأحيان، وقليلة فى أحيان أخرى.. فالشخص الذى يحظى باختيارات إيجابية كثيرة يحظى بمكانة سوسيومترية عالية، وصاحب أكبر عدد من الاختيارات يسمى "نجماً".

خصائص أعضائها: كالنوع (ذكر أو أنثى)، أو العمر، أو السن، أو القوة، أو الفاعلية. ويختلف الوضع بالنسبة للبشر على أساس أن حياتهم وأجسامهم أكثر تعقيداً من الحيوانات، فنجد أن لديهم عدداً أكبر من السمات والخصائص التى تقوم عليها مثل هذه الفروق فى المكانة، من ذلك مثلاً عضويتهم فى جماعات أخرى، وعلى أساس سمات أخرى معنوية وغير ملموسة كالجمال والذكاء، والطموح.

وكانت **المكانة** كمصطلح تمثل فى الماضى مصطلحاً قانونياً أساساً يدل على مجموعة من الحقوق والواجبات. وهناك بعض المكانات التى مازالت شائعة فى القانون مثل: مالك الأرض، والراهن والمرتهن (أى الشخص الذى يرهن عنده العقار)، والحارس، والموصى، والوصى. بعد ذلك بدأ هذا المصطلح يستخدم على نطاق واسع للدلالة على أى نوع من الأوضاع الاجتماعية. ثم أخذ يدل بعد ذلك على المكان التراتبى للشخص (أى داخل سلم التراتب أو التدرج) أو الجماعة.

وقد اهتم علم الاجتماع بدراسة أثر المكانة وأثر تغير المكانة على سلوك الفرد ربما أكثر من اهتمامه بأى موضوع آخر من موضوعات الحياة الاجتماعية، بحيث أصبح لدينا قدر وافر من المعلومات عنه. فقد اتضح – على سبيل المثال – أن الرغبة فى تجنب فقدان المكانة تكون على العموم دافعاً أقوى من الرغبة فى اكتساب مكانة جديدة. كما يبدو أن هناك ميلاً عاماً إلى توازن المكانات فى الجماعة، أكثر من الميل إلى توازن المكانات التى يشغلها الفرد فى الأنساق الاجتماعية المختلفة التى يشارك فيها بحيث يكون هناك اتساق فيما بينها، وبحيث لا يصبح الأشخاص الذين يخضعون له فى نسق معين فى مكانة أعلى منه فى نسق آخر.

١٨ـ التدرج

التدرج هو طريقة ترتيب أعضاء نسق معين فى تسلسل هرمى (درجات أو مستويات فوق بعضها)، تتفاوت مستوياته من حيث الهيبة، والثروة، والنفوذ وغير ذلك من خصائص المكانة.

ويمكننا أن نرجع أغلب النظريات المعاصرة فى التدرج (أو التراتب) إما إلى كارل ماركس الذى يرى أن نظام التدرج فى أى مجتمع يتحدد على أساس ملكية وسائل الإنتاج، أو إلى ماكس فيبر الذى يرى أن التدرج الاجتماعى يتوقف على أسس منفصلة كالثروة، والنفوذ السياسى وأسلوب الحياة. والطبقات الاجتماعية التى تحدث عنها ماركس فى كتابه **رأس المال** هى: ملاك الأرض، والرأسماليون،

والعمال، والفلاحون. أما ماكس فيبر فلم يستخدم هذه المفاهيم العامة، ولكنه وضع وصفاً خاصاً للطبقات (أو الشرائح) الرئيسية في كل مجتمع تحدث عنه.

ويمكن قياس التدرج الاجتماعي عن طريق دراسة الفروق في الدخل، والتعليم، والمهنة، والاستهلاك وما إلى ذلك من مؤشرات تدل على الانتماء الطبقي. كما طور علماء الاجتماع الأمريكيون ما يعرف باسم الأساليب الذاتية في قياس الانتماء الطبقي، وذلك عن طريق سؤال الناس كيف يصنفون أنفسهم والآخرين في الطبقات المختلفة، أي ما هي رؤيتهم لوضعهم الطبقي وأوضاع الآخرين. كما أن هناك دراسات استخدمت مزيجاً من الأسلوبين معاً في دراسة الطبقات في المجتمعات الحديثة. ويمكن مقارنة نظم التدرج الاجتماعي بين عدة مجتمعات من حيث القيم التي يرتكز عليها البناء الطبقي في كل مجتمع، ومن حيث الاتساق الداخلي بين مكونات البناء الطبقي، ومدى وضوح الحدود بين الطبقات المختلفة، وما إذا كان هناك اعتراف صريح بمظاهر عدم المساواة أو محاولة لطمسها، ومن حيث أنواع الحراك الاجتماعي الموجودة في كل مجتمع.

١٩- الحراك الاجتماعي

الحراك هو حركة الأفراد، والأسر، والجماعات من وضع اجتماعي إلى وضع اجتماعي آخر.

وهناك ثلاثة أنماط رئيسية للحراك الاجتماعي هي: **الحراك الجغرافي** (وهو الانتقال من مكان إلى آخر)، **والحراك الأفقي** (وهو الحركة من جزء من أجزاء النسق الاجتماعي إلى جزء آخر)، **والحراك الرأسي** (وهو عبارة عن اكتساب أو فقدان مكانة اجتماعية). والحقيقة أن الأنواع الثلاثة من الحراك لها أهميتها وجديرة بالدراسة، إلا أن اهتمام علم الاجتماع قد تركز بالدرجة الأولى على الحراك الرأسي.

ونلجأ بعض دراسات الحراك الرأسي إلى مقارنة مكانات الآباء بمكانات أبنائهم، فإذا تعدلت مكانات الأبناء دل ذلك على وجود حراك، إلى أعلى أو إلى أسفل حسب الأحوال. وهناك دراسات أخرى تقارن تسلسل المكانات التي شغلها فرد معين في حياته. على حين اهتمت دراسات أخرى بوصف التغيرات التي طرأت على مكانة جماعات بأكملها.

وقد اتضح من كافة الدراسات التي أجريت حتى الآن أن قياس الحراك الرأسي أكثر تعقيداً مما يبدو لأول وهلة. ومن أسباب ذلك أن وضع الأفراد أو الجماعات

يتغير داخل نسق التدرج، فى نفس الوقت الذى يتغير فيه نسق التدرج نفسه. وليس من الممكن دائماً التيقن من المكانة النسبية التى يشغلها أولئك الأفراد والجماعات فى الفترات الزمنية المختلفة (لأننا لا نستطيع أن نتحقق إلا من المكانات التى يشغلونها فى الوقت الراهن، وقت إجراء الدراسة. أما المكانات فى الماضى فلابد أن تختلف أحكامنا عليها، لانقضاء ظروف التحقق الأكيد من سمات نسق التدرج العام فى المجتمع). فهل كانت مكانة المعلم أو الطبيب – نسبياً – فى مطلع القرن التاسع عشر أعلى أو أدنى مما هى عليه اليوم؟

ومن المشكلات الأخرى فى دراسة الحراك أنه يشترط لكى نتمكن من إجراء دراسة مقارنة سليمة بين بعض المكانات أن تنتمى جميعها إلى نفس نسق التدرج، فالبدوى فى ليبيا الذى انتقل إلى المدينة وتلقى العلم فى الجامعة، لا نستطيع أن نقول عنه أنه ارتقى أو انحطت مكانته، لأنه خرج من نسق اجتماعى معين إلى نسق اجتماعى آخر مختلف تماماً. فالكلام عن حدوث حراك اجتماعى له يعد من وجهة النظر السوسيولوجية لا معنى له.

ومشكلة أخرى من مشكلات دراسة الحراك الرأسى هى كيفية اختيار المعايير التى سيتم الاحتكام إليها لمعرفة صعود الشخص أو هبوطه على سلم التدرج الاجتماعى. من هذا مثلاً أننا إذا قارنا المكانات المهنية لبعض الناس بمكانات آبائهم، فسوف نتوصل إلى نتائج متباينة تماماً، تبعاً لما إذا كانت المهن الحالية للأبناء قابلة للمقارنة بالمهن التى كان يمارسها الآباء وقت ميلاد أولئك الأبناء، ثم عندما كان أولئك الآباء فى سن أبنائهم الحاليين، أو تلك التى مارسها الآباء فى ختام (ذروة) حياتهم العملية.

ورغم كل تلك الصعوبات، التى يجتهد علماء الاجتماع فى البحث عن حلول لها، فإن دراسة الحراك الرأسى – كما يبدو فى الحياة العملية للأفراد أو فى تغير أوضاع الجماعات المختلفة- يمكن أن تدلنا على التغير الاجتماعى الذى يجرى فى المجتمع أكثر من أى نوع آخر من الدراسات.

٢٠- القوة

القوة هى قدرة الفرد الداخل فى علاقة اجتماعية على فرض إرادته الخاصة رغم ما يلقاه من مقاومة لذلك.

والقوة الشرعية يطلق عليها عادة اسم **سلطة** Authority (والمقصود بالشرعية أن تكون مدعومة من قبل معايير الجماعة أو معايير أطراف العلاقة). أما القوة التى تمارس بشكل غير رسمى وبدون ميكانيزمات محددة للتغلب على المقاومة

فتعرف باسم **النفوذ** Influence.

وعلى الرغم من أن القوة التى تمارسها الحكومات هى موضوع الاهتمام الرئيسى لعلماء السياسة، إلا أن ظاهرة القوة لا تقتصر أبداً على دنيا السياسة وحدها. فعلاقات القوة تظهر فى كافة الأنساق الاجتماعية بدءاً من الأسرة حتى الدولة الوطنية، ويوجد فى كل تنظيم اجتماعى أسلوب لتوزيع القوة داخله.

والملاحظ أن القوة تتصف بشئ من التناقض، ومن التناقضات الحالية نذكر على سبيل المثال:

(أ) **أن القوة ظاهرة تبادلية**: فالسيد لا يستطيع أن يتحكم فى العبد، إلا إذا سمح السيد لنفسه أن يخضع إلى حد ما لتحكم هذا العبد فيه. وفى هذا الصدد نذكر قول السياسى الفرنسى ليدرو رولان "ها هم أولئك الناس ذاهبون، يجب أن أجرى لكى ألحق بهم، لأننى قائدهم".

(ب) **أن ممارسة القوة وحيازة القوة ليسا شيئاً واحداً تماماً**: فأقوى الحكام هم أولئك الذين لا يحتاجون إلى إثبات قدرتهم على قمع مقاومة رعاياهم، لأن رعاياهم لا يقاومونهم أبداً.

(ج) **أن القوة كثيراً ما تكون وهماً**: ولكن ذلك الوهم يمكن أن يستمر إلى مالا نهاية، إذا لم يواجه تحدياً. فضعف حاكم ما قد لا يتبينه أحد، إلا عندما يقع حدث معين يكشف لرعاياه أنه لم يعد يتمتع بولاء الآخرين.

(د) يبدو لنا عادة أن الأشخاص الأقوياء يتحكمون فى وسائل إكراه الآخرين على الطاعة، غير أن تلك الوسائل تتوقف دائماً على مدى اقتناع الأفراد فى أدنى مستويات القوة، لأنهم هم الذين يقومون فى النهاية بإجبار الناس على الطاعة.

وقد يظل كثير من علماء الاجتماع حتى وقت قريب يتجنبون دراسة علاقات القوة، إما لأن لهم اهتمامات أخرى فى ميدان العلم، أو لأنهم لا يريدون تبنى وجهات نظر يمكن أن توصف بأنها محافظة أو راديكالية. ولكن ذلك الوضع لم يعد قائماً الآن، لا فى العالم الغربى الرأسمالى، ولا فى مصر وبعض البلاد العربية الأخرى. ذلك أن الصعوبة المتزايدة فى الحفاظ على النظام بين الدول وداخل كل دولة – خلال السنوات الأخيرة – قد أثار قدراً كبيراً من الاهتمام بتحليل علاقات القوة، وبنظم تحول توزيع القوة تحت ظروف معينة.